

الهجرة

من جنوب الدلتا إلى شمالها

للامتاذ عبريان سعد

من البلاد ما يزيد سكانه على ما تدر من رزق ، فلا يكون أمام أهلها إلا أحد سبيلين :

إما الرضى بالفقر والراحة ، وإما الضرب فى الأرض حتى يستقروا فى مكان كثير الرزق قليل السكان . وهذا هو الهجرة .

والهجرة إما الى مكان داخل المملكة وإما الى مكان خارجها ، فإن كان فى المملكة متسع من الأرجاء ينتقل إليه أهل الأماكن المزدحمة فليس ثمة ما يدعو أهل البلاد إلى هجرها إلى مملكة أخرى . وإن ضاقت كل الأرجاء بأهلها وكانت فى الشعب روح الشجاعة وحب المجازفة وعدم الرضا بالفقر والراحة هاجروا إلى أصقاع نائية ؛ والأرض كلها أرض الله .

وقد هاجر الانجليز إلى الجزائر النائية ، كلما اكتشفت جزيرة نزع إليها منهم خلق أثروا ثراء عريضا فكان منهم أهل استراليا ونوزيلندا وأمريكا الشمالية . وهاجر من أوروبا خلق كثير نزّلوا بأمريكا الجنوبية وجزر كثيرة من جزر الهند الغربية والشرقية ، أصابوا من الثراء فى أوطانهم الجديدة ما أصاب الانجليز .

وهاجر من سوريا ولبنان كثيرون يبلغون الآن مئات الألوف فى كل ناحية من نواحي العالم الذى يجد فيه المهاجر فرصا للعيش وفرصا للثراء .

ونحن الآن فى مصر نواجه مشكلة ازدياد السكان وازدحام بعض المديريات ازدحاما جعل الفقر ينتشر ، ولقد أصلحت الحكومة أراضى فى شمال الدلتا وكان يجب أن يخفف إصلاحها ازدحام المديريات الأخرى ولكن ذلك لم يحصل .

لماذا ؟ لأن الأرض المستصلحة يشتريها رجال المال فيستثمرونها برجال معبودين ينقلونهم إليها كلما دعت ضرورة العمل ثم يعيدونهم إلى بلادهم التى جلبوهم منها .

فإصلاح الأرض فى شمال الدلتا ، مهما تقدم وعظمت نتائجه سوف لا يكون له أثر فى حل مشكلة زيادة السكان ما دام الحال على ما هو عليه الآن .

ومن العبث أن نطالب فلاحي المنوفية والقليوبية وجنوب الشرقية والدقهلية والغربية وهى أشد مناطق القطر زحاما ، من العبث أن نطالبهم بالهجرة ، فلن يهاجروا لمجرد النصيحة أو الطلب رغم علمهم بأن الهجرة هى دواء فقرهم ، لأن الهجرة تحتاج إلى مال وإلى ماشية

والى بيوت تبني فى المهاجر ، وفلاحو تلك المناطق المزدحمة لا مال لهم ولا ماشية ولم تكن لهم مساكن يأوون اليها ولم تعرض عليهم أرض يملكونها ويسددون ثمنها الاسمى من جزء من غلتها لا يجوزهم ان يدفعوه .

ولكى ندرك مدى تقصيرنا فى تشجيع الهجرة وترغيب الناس فيها يجب أن نعلم ماذا تصنع المهاجر للمهاجرين . وعندى طرف من حديثها .

فى سنة ١٩٢٨ كان لى صديق يدرس الهندسة البحرية فى انجلترا وأتمها ، ووضع على ظهر سفينة تجارية مساعدا للمهندسين تمهيدا لمنحه الدبلوم . ومدة تمرينه هذه سنتان .

رحلت به السفينة تجوب بحار العالم ، فزارت كل موانئه تقريبا . وكان من البلاد التى قضت فيها السفينة أياما كثيرة نيوزيلانده .

عاد صاحبي ولقيته ، فحدثني عن رحلته ، وحدثني عن اقامته فى نيوزيلانده ، وحدثني عن أهلها الذين ربطته بهم صداقة ، وحدثني عن الحياة هناك . فسألته عن الهجرة ، أهى مباحة ؟ وما مدى المساعدة التى يلذاها المهاجر ، قال إن هناك تقانات شبه حكومية تعطى المهاجر أرضا وآلات للتعبيد والزرع والحراث ، ويعطونه بذورا ويتركونه عامين أحيانا ونجسة أعوام أحيانا لا يحصلون منه ثمن شئ مما أعطوه حتى اذا استقر ودرت الأرض ، بدأ فى سدادهما أعطى .

ولقد رغبت فى الهجرة مع أنى كنت موظفا براتب يفرى أى شاب فى التمسك به ، وأرسلت طلبا لإدارة الهجرة فى لندن بقاءنى رد رقيق ومعه استمارات الهجرة . ولم يحل دون هجرتى إلا شرط لم استوفه ولا سبيل إلى التغلب عليه ، ذلك هو سابق اشتغالى بالسياسة والحكم على بسببها وهم لا يقبلون مهاجرا من هذا الطراز .

لو أننا أردنا تعمير أراضى شمال الدلتا واستغلالها كما أرادت حكومة نيوزيلانده تعمير أراضيتها ، لوجب علينا أن نسير سيرتها ونحذو حذوها . فإذا عمرت تلك الأراضى انحلت مشكلة السكان الزائدين فى المديرىات المزدحمة ، لأن هؤلاء السكان هم الذين سيترحون لتعمير تلك الأراضى فنصيب طائرين بحجر واحد .

والفرصة الآن سانحة كأحسن ما تكون الفرص السانحة ، فإن فى مصر من أهل نيوزيلانده عدد ضخم ، منهم من غير شك كثيرون ممن يشتغلون بالزراعة ولهم اتصال وثيق بالمقابات التى تمد الناس بالمساعدة .

ونستطيع بالاتصال هؤلاء الناس ، أن نكون فكرة صحيحة عما يتبع هناك ، وأن نقبض من نظمهم ما يتفق مع حالتنا الاقتصادية والاجتماعية . وإننا لنعلم علم اليقين أن مدى المساعدة هنا سيكون أقل بكثير من مداها هناك ، لاختلاف مستوى المعيشة فى مصر ونيوزيلانده فالرجل هناك يحتاج للضرورى أو لعيش الكفاف أضعاف ما يحتاج اليه الفلاح المصرى الذى يضرب الرقم القياسى فى العالم فى قلة ما يكفيه من المال ليعيش .

لو أن آلاف الأفدنة بل مئات الآلاف التي شقت في قانا المصارف بدل أن تباع بأثمان خيالية للشركات وزعت على الأسر التي تشتغل بالزراعة في المديرية المزدهمة ووزعت على تلك الأمر مساعدات مالية وعينات من البذور والسماد والماشية ، ولو أن قرى بنيت في تلك المساحات الواسعة لأصبح شمال الدلتا يبارى جنوبها عمراناً وثروة ولأصبح فيه لسكان المديرية المزدهمة متنفس . ولكن كل ما نظف به ، وصف للزحام وطلب لحل مشكلته ووصف للفقر ومطالبة مقاومته .

إذا كانت الأرض تجد في نيوزيلاندا مهاجرين من مختلف الممالك لزراعتها وتعمير بورها نازحين إليها من كل فج عميق ، أفلا تجد أرض شمال الدلتا في سكان جنوب الدلتا من يعمرها والمسافة بينهما لا تتجاوز بضع ساعات بالسيارة أو القطار .

مستحيل أن يكون الفلاح المصري من الانحلال بحيث يأتي أن يهاجر من قرية لقرية أخرى إن ضمن أرضاً ومساعدة وإن علم بأن الأرض سيستغلها لنفسه ، وأنها ستكون ملكاً له . والدليل على ذلك هجرة أهل القرى المزدهمة من وقت لآخر إلى مزارع الشمال كلما احتاجت مزارع الشمال إلى عمال للزراعة أو للحصاد . ولو أن أولئك العمال وجدوا سبيلاً إلى الاستقرار هناك بزوجاتهم وأولادهم لاستقروا .

سيعترض أصحاب المزارع في الشمال بأنهم بنوا بيوتاً للعمال ولكن العمال يابون الهجرة وسكنى تلك البيوت . وردى على ذلك أن الهجرة إن لم يكن الدافع لها مطعماً فلا يمكن أن يقبلها إنسان ، وأى الناس يعمل بالأجر في قريته التي ولد ونشأ بها ثم يهاجر ليحصل بالأجر نفسه في قرية نائية يكون فيها غريباً ، والغربة نوع من الذل .

ولكن لو أن ذلك العامل علم أنه سيصبح صاحب ملك وأنه سوف يجد مساعدة تيسر له الزرع والحصاد ، إذن لراينا سيلاً جارفاً من العمال الأشداء يحول فيافي شمال الدلتا التي تزرع نصف زراعة إلى أرض عامرة منتجة .

لتجرب إنشاء قرية ولتقطع زمامها قطعاً صغيرة كل منها ثلاثة أفدنة مثلاً ، ولتجعل لكل راغب في قطعة منها بقرة ، ولتقدم له السماد والبذور على أن يدفع مال الأرض مضاعفاً لمدة خمسين سنة ، فإن نجحت القرية وعمرت بالمهاجرين أنشأنا قرية أخرى وهكذا .

لقد أنفقت الحكومة ١٦٠ ألف جنيه لإنشاء الموظفين المنسيين ، ولها الشكر من غير شك ، ولكن الفلاحين المنسيين وأرض شمال الدلتا التي تنتظر سواعدهم وجلدهم وخبرتهم في حاجة إلى مثل هذا المبلغ ينفق كل عام ، فتدخل مشاكل متعددة لا مشكلة واحدة ، ويكون ذلك بدء عهد ينظر فيه الفلاحون للحكومة نظراً للجيش للقائد لا نظراً للطير للعمائد كما قال الزعيم الخالد سعد يوم ولي الحكومة . لأن الفلاحين تعودوا حتى اليوم أن يدفعوا للحكومة لا أن يتقاضوا منها . فإذا جاء اليوم الذي يقبض الفلاح فيه من يد الحكومة مالا أو يتسلم ماشية أو أرضاً ، شعر الفلاحون جميعاً أن الحكومة منهم في مكان القائد لا الصائد

عريان سعد